ملحوظات الوهدة

فيليپ جاكوتيه

(هنا ترجمة لصفحات مختارة من الكتاب الجديد للشاعر السويسريّ بالفرنسيّة فيليپ جاكوتيه Philippe Jaccottet، الصادر عن منشورات «فاتا مورغانا» Fata Morgana بفرنسا بعنوان: «ملحوظات الوهدة» Notes du vrai، والوهدة كما هو معروف هي واد صغير ضيّق. وكما اعتاد الشاعر في أغلب مؤلّفاته النثريّة، فهو يدوّن هنا معايناته للطبيعةً ويسجّل قراءته وسوانح أفكاره وقصصص أحلامه، ويقرأ خصوصاً الوقائع اليوميّة التي يحوّلها هو إلى «وقائع» شعريّة.)

الجبل المغمور بالجليد والذي تهبه الشمس مسحة ورديّة: نار كأنّها من رماد كالح في الأسفل وفي الأعلى هي احتراق: شعلة، بملاقاتها السماء، تصير بيضاء.
هذا شبيه بنور القمر أيضاً.
الجبل الخفيف الذي ينقلب بخفاءٍ إلى ملاك أو إلى بجع.

هذا بالذات، القنديل الذي ينبغي ألاّ ندَعه وراءنا ينطفيء. «نور سرمديّ» لاستراحة الموتى، فينا على الأقلّ.

|

قُبيل الثامنة، النور البرتقاليّ المشتعل في كبد الأفق وفي عالية السماء التي تتضوّأ والتي تأتلق فيها حدوة القمر البالغة النحافة. ليس البرد بشديد.
هذا يساعد الجسدَ في التخلّص من سطوة النعاس والفكرَ في أن يتحرّر من تجاعيده.

|

إنّ أساطين الهايكو اليابانيـّين، أولئك الذين يقبضون على النور في أثناء مروره عبر ما يزول، والذي يمحضون الأكثر هشاشةً أعلى قيمة ممكنة ويفترضون له أكبر سلطان، أقول إنّهم ليسوا بالمتصوّفة: لا أحد يفكّر بالقول إنّهم «يحترقون» ولا إنّهم يتسلّقون الأعالي. بل يذكّرونني بأولئك الخدم في «رجال المَنْشرة» (دكّان نشر الأخشاب) لدوتيلDhôte، الذين، فيما يجْلون آنية الفضّة أو البلّور في منازل سادتهم، يرون على حين غرّة إلى الألق الصافي لجُنينة وهو ينعكس فيها.

|

نار نوقدها أسفل مرآة السماء، الباردة، كمثْل بحْرة اللهاث تلك التي تطمّننا على أنّنا ما برحنا أحياء نُرزَق.

|

شيخ متضائل الجسم، مضطرب الفكر من جرّاء المرض والأسى، لا يرسم ظلّ ابتسامة إلاّ في ما ندر، مستعيداً ظلال ذكريات، وهو نفسه كمثل ظلٍّ، جالس في داره، دائراً ظهره للباب المفتوح، وللعالم، ولنور الربيع وآخِرِ ثلوج السنة.

إلى جانبه، رفيق عمر بأكمله، هذا الذي يصغره في السنّ، والذي ألقى به السرطان أسفل سافلين، وأعياه: مصاب في عرض الشارع، أو على قارعة طريق، ملاكم «مدوَّخ»، ملطوم على الصدغ، صدغ آخذ بالاسوداد.

البؤس الانسانيّ كلّه، عندما نلمسه بالاصبع، هو كمثْل حيوان يوحي بنفور ينبغي أنْ يتحمّله القلب، وأن يتجاوزه، ما استطاع ذلك.

|

الحرب: صفوف طويلة من الهاربين تحت الثلج: شيوخ لا طاقة لهم على السير، يجرّهم على الأرض، في أكياس بلاستيكيّة كبيرة، أقارب لهم لا يكادون أن يكونوا أقلّ هرماً منهم، لا ولا أقلّ نهكاً، نساء مرتجفات من شدّة البرد.

أُسَر مختبئة في أقبية وبلاليع. وما عاد في مآقيهم الناشفة مزيد من الدمع.

|

رجلان تائهان.

أحدهما في منزله وما عاد ليعرف أنّه فيه، بل يخلط بينه وبين منزل آخر ربّما كان عاش فيه في ماضي الأيّام، أو ربّما لم يعش فيه، وما عاد ليسير إلاّ متهمّساً بين الأشياء الموجودة، شبه غير الموجودة، وتلك التي لم تعد قائمة إلاّ في رأسه المتعبة.

الثاني لم يعد لديه سوى حلم: أنْ يعود إلى داره وأن يعثر على بيته. لكن ما إن يعثر عليه حتى يكفّ عن أن يكون بيته، بلا رجوع.

ذلك أنّه سائر في الدرب الذي يُقصي عن جميع البيوت.

|

المطر البارد كالفولاذ.

|

عاودتْ خاطري مساء أمس، فجأةً، سوناتة شوبيرت Schubert الأخيرة للبيانو، فطفقتُ أقول لنفسي ببساطة: «هوذا!». هوذا ما يقف باستقامة على نحو يتعذّر تفسيره، في وجه أسوأ العواصف وفي مواجهة غواية الفراغ: هوذا ما يستحقّ أنْ يُحبّ نهائياً: عمود النار الرقيق الذي يقودك، حتّى في قلب الصحراء التي تبدو بلا حدود، ولا انتهاء.

|

نتبع النهج المحاذي للتلّة، قبالة المنزل الذي لن يعود إليه أيّ من صديقينا: ثمّة أزهار سوسن صفراء في الجدول الذي يحجبه انخسافه الشديد عن الرؤية، وبضع سحْلبيّات، وشدو أولى العنادل، الأكثر احتجاباً على النظر من الماء نفسه، ومطر هيّن مفاجئ يجبرنا على أن نحثّ خطانا. جميع أشياء الحياة الغاضرة التي فقدت طعمها منذ زمن طويل. الهواء بأبوابه الألف

المفتوحة.

|

بعدما زرنا صديقنا المحتضر، أرى في ما يرى النائم امرأة متّشحة بالسواد منهمكة في توزيع ملاعق فضيّة تدلّ على الاعلان عن موت طفل. ما إن تهب الملعقة الثانية حتّى يستفحل بنا القلق على الوحيد من أصدقائنا، هنا، الذي لديه صغير. فنحاول إخفاء الملعقة أو الحيلولة دون أن يأخذها أحد. كما في لعبة «الرجل الأسوَد».

|

عينا المحتضر، صفراوان، كابيتان، وربّما لم تعودا لتنظرا إلى أيّ شيء برّانيّ –، لن نعرف أيّ شيء في الداخل يمكن أنْ تتفرّساه. ذات لحظة، تستعيدان زرقتهما الرائعة، أي تستعيدان الحياة ربّما لآخِر مرّة. كمثْل سماء تعاود الانفتاح بطلبٍ من طائر. لبرهة بالغة الوجازة.

|

ما السبيل إلى قول ذلك؟

لقد لمسنا شيئاً هو من البرد بحيث أُصبنا به طيلة السنة، حتّى في عزّ الصيف.

سيكون مفرط الجمال أنْ نتحدّث بصدده عن مجْلدة. بل حتّى الكلام عن الحجارة سيُجمّل ذلك.

هو ضرب من البرد يصيب، في قلب الصيف الجميل، قلبَك نفسه.

يد هي أكثر برودة من أن تظلّ منتمية إلى هذا العالَم.

|

نور نهايات الصيف الحليبيّ، الصوفيّ، المُهدّئ.
كذلك هو مَن يعود بوفاء، في اللحظة التي لم نعد فيها لنعوّل عليه، ليقاسمنا العيد ذاته أو

ليهدّئ تباريح قديمة، بلا صخبٍ ومن دون أن يستـعرض صداقته، أو ليُبعد شيئاً من البرد.

|

إنّه كما لو لم نكن، طيلة شهور عديدة، قد عشنا، وكما لو لم نحسّ بشيء، لا ولم نرَ شيئاً ولم نقرأ شيئاً، أو نكاد. لم نقدر على قراءة أيّ شيء، بباعث من تلك اليد الباردة التي لُمِستْ ربّما عبثاً.

صوت مجهول، آتٍ من كوريا الجنوبية، صوت شو شونغ–كوون Cho Chong-Kwon، وقد ترجمه كلود موشار Claude Mouchard، يكاد يكون الوحيد الذي لحق بي، في «ضريح القمّة»؛ برد من علامة معاكسة:

«مرتقياً الجبل الشتائيّ أُبصر
في المكان البارد الشيء الأنبل وهو يسطع
كمثْل الجليد
وسكون تساقط الثلج الحاسم
(...)
في بداءة الصبح هذه حيث يذوب كلّ ثلج البارحة، كانت الذروة
المتلقّعة بالجليد الأزليّ،
تُبجّل الضوء».

|

لمَ ينبغي الدوران على شاكلة الدراويش
إذا كان يكفي أن نسير على هذه الطرق كلمّا استطعنا إلى ذلك سبيلا
مسبوقين بعلامات الجَراد الموجزة حمراء أو زرقاء
كما كان أمراء الماضي مسبوقين بحاملي بيارقهم؟

|

كلمات مشدودة إلى الأرض بغصنها غير المرئيّ.

|

القدّيس يوحنّا الصليب: «يا أُسودُ، ويا زرافات، ويا أيائل وثّابة...»
ومع ذلك، فأحياناً لا نكون بحاجة حتّى إلى هذه الحيوانات المقدّسة ولا إلى الأساطير، حتّى تتواثب الكلمات من كثيب إلى آخر، خللَ الأحراش والوِهاد، كسهام من النور في النور، من دون أن يكبحها ثقل فكرة واحدة، ولا ظلّ تخوّف وحيد.
برهة بلا مدّة، نهار ربّما كان خارج النهار، ليلة واحدة هي «ألطف من الفجر».

|

هذا الضرب من الابتسام الذي تكونه الأزهار هي أيضاً أحياناً، وسطَ أعشاب متجّهمة.

|

وهذا الضرب من زهرة متفتّحة، منفتحة على سعتها انطلاقاً من القلب، الذي يمكن أن يكونه أيضاً طفل صغير تحت سماءٍ تمزّقنا زرقتها.

|

نعود الناجي في مشفاه، بعدما أمضى ليلة بأسرها في الغابة – إلاّ إذا كان اختُطفَ أو أُريد إيهامنا بفراره (هذا ما لن يعرفه أحد أبداً). لمّا كان أحدهم يقرأ عليه، لعجزه عن أن يقوم بذلك بنفسه بباعث من ضعف بصره البالغ، رسالة من ابن أخيه الانجليزيّ ينبئها فيها بموت صديق له، فهو يطالب بتكرار المفرد died (مات). كما لو كان يريد التحقّق مرّة وإلى الأبد من أنّ هذا الموت فعليّ – في اللحظة التي كان فيها فكره، المتزايد التهويم، في غابات أخرى ولـيالٍ أخرى، ينسى ذلك الشيء أو يرفض أن يقبل به.

|

أشهد في ضرب من الهناءة الطيرانَ المتسارع للأوراق المنفصلة عن أغصانها بفعل ريح شماليّة شديدة العنف تزيد من ائتلاق الأوراق التي بقيت في الأشجار. ويذكّرني هذا بشيء ذي صلة بتكهّنات العرّافة «سيبيل».
ففي النشيد السادس من «الانياذة»، يجعل ڤرجيل [بطل الملحمة] إنياس، الآتي لاستخارة العرّافة في «كوم»، يجعله يتلقّى هذه الكلمات: «فقط، لا تكِلْ بأبياتك النبوئيّة لأوراق يمكن أن تتطاير في فوضى، لعبة للمُسرعة من الرياح».

هكذا تثرى رؤيتنا لأشياء هذا العالَم. فهذه الأوراق المتناثرة، «لعبة للرياح المسرعة»، لم تعد مجرّد أوراق. بل هي تحمل في طيّاتها، في نظري أنا على الأقلّ، انطلاقة الطيور ووثبتها، وما يبدو عليها من سكْر فرح، في حركة من المغامرة والغزو أكثر منها حركة فرار، وبالأخص أكثر منها حركة سقوط. هذه المقاربة [بين الأوراق والطيور] كانت كافية لتفسير هذا «الضرب من الهناءة» الذي كنت أحسستُ به، غريزيّاً، من دون أن أوغل في البحث أبعد.

لاحقاً فحسب، ستأتي ذكرى أبيات ڤرجيل لتعبئ هذه البرهة الخريفيّة الموجزة بمعنى أكثر اكتنازاً: ففي ما وراء العالَم المرئيّ الذي تنخرط فيه الأوراق والطيور، ستكتشف النظرة فيمَ يتهيّأ للكلمات أن تكون شبيهة بها (أي بالطيور والأوراق)، كلمات الشعر والكلمات التي كان إله ينتزعها من شفتي امرأة مصطفاة من لدنْه لهداية مستخيري المستقبل. كلمات غدّاها، شأنها شأن الأوراق، نسغ يصّاعد من الظلام ثم يُهدى للريح، كلمات مندفعة، شأنها شأن الطيور، بعيداً أمام نفسها، صوب المجهول الذي كانت هي تزمع أنّها تمنحنا قياسه.

|

پييرو بيغونجياري Piero Bigongiari، في ديوان صدر بعد رحيله:

«لا مقامَ إلاّ في منعطفِ هذا
السَّحَر المنبلِج خارجَ الموت...»

|

الهبة غير المنتظرة لشجرة تضيئها الشمس المنخفضة لنهاية الخريف، كمثْل شمعة تُشعَل في غرفة تزداد ظلاماً.

صفحات، كلمات متروكة نهبَ الرياح، مُذهبة هي أيضاً بنور المساء. وإنْ تكن كتبتْها يد مبقّعة [بباعث من الشيخوخة].

أزهار بنفسج عند مستوى الأرض: «لم يكن ذلك سوى هذا»، «هذا ولا شيء أكثر»؛ ضرب من الصدَقة، إنّما بلا تَعال، ضرب من القربان، لكنْ بلا شعيرة ولا مأساويّة.

لم أجثُ على ركبتيَّ، ذلك المساء، في إيماءة توقير، ولا في وضعيّة صلاة؛ بل ببساطة لأنزع العشب. آنئذ، عثرت على هذه البقعة من الماء الخبّازيّ اللون، من دون حتّى أن أتلقّى أريجها الذي كان في الماضي مكّنني من اجتياز سنين عديدة. كما لو أنّني، في برهة من ذلك الربيع، تعرّضت إلى تحوّلٍ: مُنِعتُ من الموت.

ينبغي تشتيت الأبخرة، ورفع الأنقاض، وذلك عن صداقة نقيّة، بل أفضل من هذا: عن حبّ. هذا ما يزال ممكناً، أحياناً. في غياب إمكان الفهم والاقتدار على ما هو أكثر.

في ضوء تشرين الثاني، ذلك الذي يُحدث أقلّ قدر من الظلال والذي نجتازه بلا تردّد، بوثبة من العَين.

|

اليد ممسكة بالدرابزون
والشمس الشتائيّة تُذهب الحيطان

الشمس الباردة تُذهب الحُجرات الموصدات

العِرفان لعُشب القبور
لإيماءات الطيبة، النادرة

وجميع الأزهار المتناثرة للغيوم
مَجامر الغيوم، الصوفيّة
المبعثرة قبل أن ينشر سدوله الليل

|

عبارة أتذكّر أنّني قلتها، في أثناء حلم مغموس بالكآبة، لفتاة مجهولة سوداء الشعر: «ثمّة في كلّ لحظة، في هذا العالم، امرؤ مشغوِل بالبكاء، بباعث من خطأنا أحياناً.»

|

وهوذا المساء يعاود الانطباق مرّة أخرى، حانياً جناحه الورديّ المُذهب من أجل الرقاد. أشعر بأنّ من واجبي تدوين ذلك. كما كان الورّاق يدوّن حسابات التاجر نهاراً بنهار: مساء مخطوط في كتاب المساءات، لكنّه ليس ممّا يمكن مراكمته أو المفاوضة بشأنه. لا نسجّل هنا وزناً ولا قياساً ولا سعراً: لا شيء ممّا يمكن ترقيمه. بل هو شيء كتقاطع نظرتين جليّتين، يصّاعد منهما ما يبدو فالتاً من موقوتيّتهما.

|

هكذا إذَنْ:
لا تقدّمَ، ولا أدنى خطوة إلى الأمام، بل بضع تراجعات، ولاشيء سوى مكرور الكلام.

ما من فكرة حقيقيّة. لا شيء سوى اندفاعات مزاج؛ تنويعات مزاجيّة، متناقصة التماسك؛ لا شيء سوى شظايا، نتَف حياة، مظاهر تفكير، شذراتٍ منتشلَة من هزيمة أو مُفاقمة لها. هنيهات شاردة، أيّام مفصولة العرى، كلمات منثورةً، لأننّا لمسنا باليد حجراً هو أبرد من البرد.
بعيداً عن الفجر، حقاً.

ما لا نقدر مع ذلك على قوله، لأننّا بالإصبع لمسناه. اليد الباردة كمثْل حجر.

لفرط ما تكتب طيور السَّمامة بتسارع مهول، ولفرط ما تخطّ علاماتها عالياً في سماء الصيف، لم يعد في مقدور الأموات قراءتها. وأنا الذي ما برحتُ أراها في ضرب من الفرح، لن تختطفني هي إلى السماء.

أدنى منها، خربشات الجاهل هذه. هروب موجز وصافٍ، محاولات للتحليق، وأطوَل سقوط ممكن وسطَ الحصباء، وأطوَل تقهقر.

في وحشة الهاربين الشبيهة بالثلج الذي لن يعود أدنى أثرٍ للقلب مرئيّاً فيه أبداً. أو كمثْل ملاءة ترفض أن تحمل بعد الآن دمغةَ وجهٍ، أو حتّى دمغةَ يد.

(ما برح أحدهم، مع ذلك، يكتب على الغيوم.)

عن الفرنسيّة: ك. ج.